هل ينطق الحيوان الاعجم

لم يبرح من بال قراء المقتطف الكرام ان العلامة السرجون لُبك الانكليزي حاول منذ مدّة تعليم القراءة للكلب على ما اوردناهُ في بعض اجزاء المقتطف السالفة. وقد طالبنا بعض القرّاء بذكر ما آل اليهِ امر هذا الكلب وما اذا كانت آمال صاحبهِ قد تحققت فيهِ او خيبت مساعيهِ فرجع الى قول الفلاسفة والمتكلمين الذين خصُّوا النطق والعلم بالانسان ونفوهما عن الحيوان الاعجم. فجمعنا هذه المقالة وذكرنا فيها ما وقفنا عليهِ من امر هذا الكلب وما يعلم من امر العجماوات عمومًا في ما يتعلق بمسئلة النطق والعلم فنقول

الصوت عامٌّ في الدنيا حتى زعم بعض الفلاسفة ان لكلٍّ من الارض والكواكب وانواع الحيوان والنبات والجماد صوتًا خاصًّا بهِ. وهذا يوافق قول المتكلمين ان كلَّ ما في الكون يسبّح بحمد باريهِ. ومن المؤكد ان لاكثر انواع الحيوان اصواتًا مسموعة ولان الناس انتبهوا الى هذه الاصوات من قديم الزمان ورأوا فيها تغييرًا يشعر بانها تتغير بحسب دواعي الحال. وكثيرون من الذين انتبهوا الى اصوات الحيوانات يعرفون اغراضها من سمع اصواتها. اخبرنا احد النبهاء ان العصفور الواحد يزقزق على ضروب شتى بحسب دواعي الحال وأكّد انهُ يعرف من صوتهِ ما اذا كان ذكرًا او انثى وما اذا كان لهُ بيض او فراخ. ولكن بعض الحيوان لا يُسمع لهُ صوت ككثير من الطيور والحشرات. وبعضها يصوت في بلاد ولا يصوت في اخرى كالكلب فان الموجود منهُ في بلاد تبري ودكان بالهند لا ينبح ولا يهرُّ ولا يصوت مطلقًا. وبعضها يصوت في فصل دون آخر ككثير من الطيور. وبعضها يصوت في اوقات مخصوصة من النهار كالديك او في احوال مخصوصة كالطيور التي تصوت قبل دنو النوء

وبعض الطيور يمثّل بغيرهِ ويقلد اصواتهُ فالحسون يقلد الكنار والكنار الحسون. والببغاء تقلد اكثر الاصوات حتى صوت المنشار. ومنها ما يتباهى بصوتهِ كما يتباهى المغنون باصواتهم وقد تتبارى الطيور في التغريد وابلاغ الصوت حتى تقع ميتة من شدّة جهدها. وبعض الطيور يصوت من بطنهِ ولا يفتح فاهُ كالحمام والقمري. ويقال ان الضفدع تنقُّ على هذا الاسلوب لانها لا تفتح فاها وفي ذلك يقول الشاعر

قالت الضفدعُ قولاً فسّرتهُ العلماء
في فمي ماء وهل ينـــطقُ مَنْ في فيهِ ماء

ويقال ان الغراب والكنار تنطقا بكلمات مفهومة تعلماها من البشر ولان البوم الذي يعشش

في قبب الكنائس يتمثل باصوات الاجراس التي فيها وذكر مكسيموس الصوري ان رجلاً جمع عصابة من الطيور وعلمها حتى صارت تشاركهُ وهو يتغنى على المعازف. ويقال انهُ كان بباريس منذ عهد قريب رجل يذهب الى بستان التويلري كل يوم وينادي الطيور التي فيهِ ليطعمها فتجتمع عليهِ ثم ينادي كلاًّ منها باسمهِ فيأتي ويحثم على اصابعهِ ثم يصفر لها صفيرًا مخصوصًا فتشاركهُ في الصفير

وقد اختلف الحكماء والفلاسفة في حقيقة الحيوان الاعجم من حيث العقل والنطق فقال بعضهم "ان ليس للحيوان الاعجم عقل ولا نفس وانهُ يأكل بلا لذّة ويتوجع بلا الم وينمو بلا شعور. ولا يشتهي شيئًا ولا يعرف شيئًا واذا فعل افعالاً تدل على الادراك فما ذلك الاّ لان الله خالقهُ وحافظهُ كوّن جسمهُ على منوال يهِ يتجنب كل ما يأول الى هلاكهِ. وتجنبهُ هذه آليٌّ محض خالٍ من كل خوف" (١)

وفرق بعضهم بين الغريزة والعقل فقال ان افعال الحيوانات بالغريزة لا بالعقل وان العقل مختص بالانسان من بين انواع الحيوان (٢). وذهب شوان الفسيولوجي الشهير الذي توفي منذ خمس سنوات الى ان الحيوانات كلها انابيق كيماوية وبطريات كهربائية فيمكن ايضاح كل افعالها بمبادىء الميكانيكيات والطبيعيات والكيمياء واما الانسان فيمتاز عنها بان فيهِ جوهرًا حرًّا. ولما جاءهُ جمهور العلماء الى لياج بموكب حافل ليهنئوهُ بمضي اربعين سنة منذ صار استاذًا قال لهم "اننا نعرف بالراي الحويصلي (٣) ان ليس في الكائن الحي كلهِ ولا في كل جزء من اجزائهِ قوّة حيوية مستقلة عن المادة وكل ظواهر الحياة في الحيوان والنبات يمكن ردّها الى خواص الجوهر الفرد المعروفة التي هي قوى الطبيعة او الى خواص اخرى من خواص الجوهر الفرد التي لم تكتشف حتى الآن. واما الحرية فتخرج عن خواص المادّة اذ لا يمكن ردّها الى القوى الطبيعية فهي تضطرنا الى التسليم بان في الانسان مبدأً مخالفًا لخواص المادة". والظاهر مما شافهَ بهِ العلاّمة دلبف على ما في الرفو سيتنفيك انهُ لا ينفي عن الحيوانات اللذّة والالم والذكر والتعقل ولكنهُ يذهب الى ان العقل خاصّة من خواص المادة. وان الانسان لا يمتاز عن الحيوان بالفكر بل بحريّة الفكر

بقي مذهب آخر وهو مذهب بعض الفلاسفة وخلاصتهُ ان الفرق بين الانسان والحيوان الاعجم انما هو في الكم لا في الكيف وان ليس في الانسان قوة غير موجودة في الحيوان الاعجم او غير موجود في المادة عمومًا. قال العلاّمة تندل وهو من زعمائهم ما مؤدّاهُ ان دقائق الاكسجين

(١) هذا قول ملبرانش وبقارية مذهب ديكارت الفيلسوف (٢) وهو مذهب كينه الطبيبي ومن تابعهُ
(٣) مفاد هذا الراي ان كل جسم حي مركب من حويصلات صغيرة كل حويصلة منها حية لذاتها

والهيدروجين والكربون التي يتألف منها الجسم الآلي اذا ارادت مفارقته افشت اسرارها الى الدقائق الجديدة المنهيئة للقيام مقامها وهذا سبب بقاء الوجدان في الانسان . وقال ايضاً انهُ لو انفصل الآن عن الشمس جرم كالارض ودار حولها على البعد الذي تدور الارض عليهِ لظهرت فيهِ المخلوقات الحية لذاتها حينما يبرد كما ظهرت على الارض . ولهُ ولغيرهِ اقوال أُخرى مفادها أن ليس في الانسان قوة الاَّ وهي من خواص المادة

والظاهر من اقوال آخرين من الفلاسفة أنَّ بينَ ادراك الانسان وادراك الحيوان بوناً شاسعاً ولو أوهمت اعمال الحيوان بانها صادرة عن ادراك تام . مثال ذلك انهُ كان عند دلبف الفرنسوي كلب صغير وكان معتادًا ان يلتقط العظام وقت الاكل ويخرج بها خارجًا وينهشها واذا كانت كبيرة يخرج دلبف معهُ ويكسرها لهُ بالمطرقة . واتفق في ذات يوم انهُ رمى لهُ عظمًا كبيرًا ولم يخرج معهُ ليكسرهُ فحمل الكلب العظم وعاد بهِ اليهِ ووقف امامهُ والعظم في فيهِ وجعل يصبص بذنبهِ فزجرهُ فلم يزدجر . واخيرًا فطن الى غرضهِ وقام وخرج فخرج الكلب امامهُ ورمى العظم بين يديهِ وهو يكاد يطير فرحًا فكسرهُ لهُ وقال في صدد ذلك "انني حينما افتكر بهذا الكلب وهو واقف امامي والعظم في فيهِ وانا غير فاهم مرادهُ يلوح لي انهُ كان يتعجب من قلة فهمي". وظاهر هذه القصة ان الكلب كان يعرف ان العظم المكسور اسهل مراسًا من غير المكسور وان صاحبهُ قادر على كسرهِ فذهب اليهِ واثقًا بهِ ولما رآهُ متغافلاً عنهُ نبههُ بما استطاعهُ من الوسائط وهذا جهد ما يستطيعهُ الاصمُّ الابكم في هذه الحال ولكن الاصمَّ الابكم لا يقتصر على مراجعة ما اعتادهُ بل يعمل من نفسهِ اعمالاً أُخرى تفوق طور الحيوان الاعجم بما لا يقدَّر . وكان المرجون لُبك المشار اليهِ آنفًا يضع امام كليهِ قطعًا عليها الحروف الهجائية وقطعًا أُخرى لا حروف عليها ويعلمهُ بالمزاولة حتى صار اذا اراد ان يشرب يلتقط القطع التي عليها حروف لفظة "الماء" واذا اراد اكل اللحم يلتقط القطع التي عليها حروف "اللحم" وهلمَّ جرًّا فتعلَّم بالمزاولة انهُ اذا التقط هذه القطع أُعطي الماء واذا التقط تلك أُعطي اللحم ويظهر لنا ان ذلك بمثابة ما لو تعلَّم انهُ اذا سار على هذا الطريق وصل الى بيت صاحبهِ واذا سار على ذاك وصل الى السوق

هذا ولا يخفى على كل مَنْ اقتنى الكلاب وانقن تربيتها انها تعبِّر عما في ضميرها من اللذَّة والألم والرضى والغضب والراحة والتعب والتودُّد والنفور على اسلوب لا يخفى على احد حتى انها تكاد تنطق وهي بكماء . ولا يخفى ايضًا ان الكلب يفهم كلام صاحبهِ فاذا قال لهُ اذهب ذهب واذا قال ايتِ اتى ولكنهُ لا يفهمهُ كما يفهمهُ الانسان . لانهُ اذا قال لهُ صاحبهُ ايتِ ونطق بهذه الكلمة كما ينطق بكلمة "اذهب" فالكلب يذهب ولا يأتي اذ لا يفهم المعنى الوضعي الذي تدل عليهِ تانك

الكلمتان وانما يفهم الصوت والنغمة والحركات والاشارات التي اعتاد ان يسمعها ويراها عند النطق بها . وهذا شأن الاولاد الصغار وكلّ المبتدئين بتعلُّم لغة جديدة ولو كانوا كبارًا . ولكن الانسان لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزهُ من نفسهِ الى تعليق الكلمات بمعانيها وفهم مؤدّاها بحسب مقاماتها

ولزيادة الايضاح نضرب لذلك مثلاً : هَبْ انك استيقظتَ صباحًا فسمعتَ الخادم يمشي في البيت ويكنس الدار وينفض الغبار ثم سمعتهُ يضع الصحاف والملاعق على الخوان فانك تفهم من اصوات هذه الحركات انهُ قد طلع النهار وحان وقت الطعام . ثم اذا سمعتهُ يقرع باب غرفتك ويقول لك "الطعام على المائدة يا مولاي" فقد لا يخطر الطعام على بالك بل ان الوقت قد حان للقيام من الفراش ولبس الثياب والذهاب الى الاعمال . والمعنى الذي قام في نفسك من سماعك صوت حركات الخادم والمعنى الذي فهمتهُ من كلامهِ غير متعلقين بتلك الحركات والكلمات الاّ بحسب ما اعتدتَ ان تعلقها بها . فعلى هذا الاسلوب يفهم الكلب مراد الناس من كلماتهم التي يكلمونهُ بها ومن اشاراتهم التي يشيرون اليهِ بها . وعلى هذا الاسلوب ايضًا يفهم الصمُّ البكمُ مؤدّى الاشارات ويفهم الصغار عبارات الكبار التي يخاطبونهم بها . اي ان الكلاب والصمّ البكم والصغار لا يحلّلون الاصوات والاشارات الى البسائط التي تتألف هي منها ولا يفهمون المراد من كل بسيطٍ منها ليفهموا معناها اذا وقعت في جملٍ أُخرى بل يفهمون المراد منها كلها جملةً . اما الصغار فلا يلبثون طويلاً حتى يشرعوا في تحليل الجمل الى مفرداتها والحيوان الاعجم لا يستطيع ذلك لانهُ لا يستطيع النطق . والنطق غير مقدورٍ لهُ لاسباب فسيولوجيَّة فلا مطمع اذًا بجعلهِ قادرًا على تحليل الجمل التي يسمعها الى ما تتألف منهُ من المفردات . وغاية ما وصلت اليهِ الكلاب من هذا القبيل ان كلب الاستاذ ڤان بيتهوڤن يتبع بصوتهِ لحنًا يُضرَب على البيانو وكلب دليف يتبع المغني في تغنيهِ ببعض الالحان . ولا مطمع ايضًا بجعل الحيوانات العجماء تحلل الكلمات بكتابتها كما يفعل الصمُّ البكم لان ايديها لا تطاوعها على الكتابة وغاية ما بلغ اليهِ كلب السرجون لبلك انهُ يختار القطعة التي يريدها من بين قطع كثيرة حسبما عُلِّم بعد المزاولة الطويلة . وجملة القول انهُ مهما اختلفت الاساليب التي نتفاهم بها فهي متوقفة على حركات كثيرة نحرك بها اعضاءنا بسرعة شديدة وهذا لا يستطيعهُ الحيوان الاعجم في الحال التي هو عليها

هذا وقد تبيَّن للقارىء اللبيب ما يترتَّب على التجارب التي يستصغرها العامَّة من النتائج العظمى فالعاقل مَنْ لا يستحقر بمسألةٍ من المسائل ولا يلوم سواهُ على اشتغالهِ بحثٍ لا تستعظمهُ نفسهُ ولا تهواهُ